المناهج في وصف المياهج

لحضرة القس الفاضل جرجس منش الماروني الحلبي (تنبة)

٦ في ابواب الكتاب

افضل الامام العظيم والمحسن الكريم السيد جرمانوس فرحات في جعله هذا الكتاب الفريد في جملة كتب المكتبة المارونية واضاف الى فضله فضلًا آخر في تصديره له بفهرس مطوّل يقرّب منالهُ من مريدي فوائده فالخّصهُ عنهُ اتساعًا في وصف محتوياته وتمهيدًا لما يأتي من معارضته بغيره من اشباهه. واعلم ان ما يتخلّل الفصول من الارقام انما هي ارقام صفحات النسخة السابق وصفها

الفن الاول في السماء وما يتعلّق بها. الباب الـ ١ في ذكر مبدأ خلق السماء وهيئتها (ص ٢) الملئكة والجن. هيآت السموات. ما تصوّرهُ القدماء من الافلاك. ما وراء نهاية الافلاك. عجز العقول عن ادراك حقائق الافلاك (٢١). الباب الـ ٢ في ذكر الكواكب السيارة (٢٣) اختلاف اوضاع الكواكب. الشمس ومسيرها. القمر وطلوعهُ ومذمتهُ. ليالي الشهر على ما قسمتها العرب. الخسوف والكسوف. الكواكب المتحيّرة (٤٦). الباب الـ ٣ ذكر الكواكب الثابتة وما رصد القدماء منها (٤٨) صور النصف الشمالي والجنوبي من الفلك. ما قسمت اليهِ البروج من الاوضاع. شرح قولهم الاجتماع والقران والنظر والاتصال والمقابلة. خفوض الكواكب السيارة. شرح الاقبال والادبار (٧٦). الباب الـ ٤ في ذكر منازل القمر وما قيل فيها (٩٢). السعود الاربعة. فوائد استحسنها العلماء. كواكب عرفتها العرب. خواص القطبين. النجوم التي يقع عليها لفظ الافراد والتثنية (١٣٥). الباب الـ ٥ في ذكر الآثار العلويّة (١٣٧). النار والهواء والسحاب والثلج والبرد والرعد والبرق والشُهب (النيازك) وقوس قزح (١٥٨). الباب الـ ٦ في الليالي والايام (١٥٩) قسمة الليالي والايام الى ساعات. اختلاف مقدار النهار بحسب العروض. ما يختص بهِ الليل والنهار من الذكر والوصف. الليالي والايام المشهورة (٧٤). الباب الـ ٧ في الشهور والاعوام (١٧٦) الشهور والسنة والفيّ

(معناهُ تأخُّر رجب الى شعبان ومحرم الى صفر في سني الكبس (١ وفي رأي المؤلف ان العرب تعلمهُ من اليهود) والسنين المشهورة (١٨٢). الباب ٨ في فصول السنة وازمنتها (١٨٨) ما ذهب اليهِ العرب في ترتيب فصول السنة (١٩٠). الباب ٩ في ذكر مواسم الامم واعيادهم

الفن الثاني في الارض وما يتعلق بها (٢٠٢). الباب الاول في مبدأ خلق الارض وهيئتها (٢٠٩) الاقاليم (٢١٢). الباب ٢ في ذكر الجبال والمعادن (٢٣٢). الباب ٣ في البحار والجزائر (٢٣٣) تقسيم البحار. انواع الجزائر (٢٤٥). الباب ٤ في ذكر العيون والانهار (٢٥٧). الباب ٥ في ذكر اسباب من سكن المعمور (٢٥٩) الكلدان واليونان والروم والافرنج والقبط والعرب والترك والهنود والاكراد والفرس والبربر والسودان والصقالبة (٢٩٠). الباب ٦ في ذكر البلاد ونواحيها وما ملك المسلمون منها (٣٤٢). الباب ٧ في طبائع البلاد واخلاق من سكنها من العباد (٣٤٧). الباب ٨ في المباني التي بقي اثرها ووعظ خبرها (٣٦٨). الباب ٩ فيما وُصفت بهِ المعاقل والمنازل

الفن الثالث في الحيوان وطباعهِ (٣٧١). الباب ١ في ذكر خصائص نوع الانسان (٣٧١) شرف نوع الانسان. مبدأ خلقهِ. ما امتاز بهِ وتباين اخلاقهِ. امكان استبدالهِ الخلق الدني بالخلق السني. (٣٩٩). الباب ٢ في ذكر طبائع ذي الناب والظفر (٤٠٢) كالاسد والببر والنمس (٤٠٤). الباب ٣ في طبائع الحيوان الوحشي (٤٠٥). كالفيل والكركند والزرافة والابل (٤١٣). الباب ٤ في طبائع الحيوان الاهلي (٤١٤) كالفرس والبغل والحمار والابل (٤٢٢). الباب ٥ في طبائع الحشرات والهوام (٤٢٤) كالحيات والورَل والضب والحرباء (٤٣٣). الباب ٦ في طبائع سباع الطير وكلابها (٤٣٤) كالعقاب والبازي والباشق والبيدقة (٤٤٣). الباب ٧ في طبائع بغاث الطير (٤٤٤) كالحمام والنام والبغاء والقبج (٤٥٧). الباب ٨ في طبائع الطير الليلي والهبيج (٤٥٧) كالكروان والصدى والبوم ودود القز (٤٦٩).

---

١) انظر ما ورد عن النسيء (في ٢:٢٤٦) من بلوغ الأرب للسيد آلوسي

الباب ١١ في طبائع حيوان البحر والمشترك (٤٦٥) السمك والرعّادة والسلحفاة والضفدع وبنات الماء (سيرنيس) وهي من خرافات القدماء.

الفن الرابع في النبات وفلاحته (٤٧١). الباب الاول في كيفيّة كون النبات وكيّته (٤٧٣) قوى النبات ومضارعته الحيوان (٤٨١). الباب ٢ في ذكر ما يوافق النبات من الارضين والسرجين مزدرع مصر (٤٨٢). منفعة الامطار (٤٨٦). الباب ٣ في فلاحة الحبوب والقطاني (٤٩١) الحنطة والشعير والارز والكتان والقطن الخ (٤٩٩). الباب ٤ في فلاحة البقول (٥٠٠) البطيخ والقثّا والخيار والعجور والباذنجان الخ (٥١٤). الباب ٥ في فلاحة النبات الذي لثمره قشر (٥١٤) اللوز والجوز والجلوز والفستق والصنوبر الخ (٥٢٥). الباب ٦ في فلاحة النبات ذي النوى (٥٢٥) النخل والخارجيل والزيتون والمشمش والخوخ والزعرور والخروب (٥٤٠). الباب ٧ في فلاحة النبات الذي لا قشر لثمره ولا نوى (٥٤٠) الكرم والتين والتوت والتفاح والكمثرى واللفّاح (٥٥١). الباب ٨ في فلاحة اصناف الرياحين (٥٥٦) الورد والنرجس والحبق والمنثور (٥٧٤). الباب ٩ في ذكر الاشجار ذوات الصموغ والامنان...

هذا ما امكن اثباته وقد اضربت عن كثير من الفصول خوف ملل القرّاء الكرام. وفي ذيل الفهرس ما نصُّهُ: «تمّ هذا الفهرس بيد الحقير في رؤساء الكهنة جرمانوس اسقف حلب وذلك في دير سيدة لويزة من جبل كروان من اعمال بيروت في كانون الاول سنة ١٧٢٨» اه رحمهُ الله ونفعنا بآثاره

٢ في حواشي الكتاب

عُني فريق من الكتّاب بهذا الكتاب النفيس فعلّقوا عليه الحواشي والتعاليق التي لا تخلو من الفوائد العلمية والادبية واللغوية والفلكية والتاريخية والانتقادية على ان الكثير منها يغلب عليه الخرافة والباطل اذ تعرّض كتبتها للزجر والفال والتنجيم وما شاكل هذه الاباطيل ممّا يتعلق بعالم الغيب ودون الغيب أقفال لا يفكّها الزجر والفال

ومن هذه الحواشي ثلاث او اربع حواشٍ ادبية ادمجها المؤلف او غيرهُ باثناء الكتاب وميزها عن غيرها بقوله (حاشية للمؤلف) ومنها ست او سبع تعليقات

انتقادية وادبيّة علّقها كاتبها الففل على هامش الكتاب ويغلب عليها الافادة والخطورة. ومنها حواشٍ عديدة شعرية علمية مصدَّرة (بحاشية لبعضهم) وقد انبأ الناسخ عن صاحبها حيث قال في (ص٥٣٢) ما حكايتهُ: «هذه الحاشية نظم الشيخ الامام الفاضل العارف بالله تعالى ابي اسحق ابراهيم النزي الشهير بابن رقاعة نفع الله بعلومهِ وما فيهِ (اي في الكتاب) من الحواشي على قافية التاء فمن نظمهِ من القصيدة المذكورة (يريد تائيّتهُ في النبات والاشجار) وغيرها من الابيات التي مكتوب عليها حاشية لبعضهم لهُ» اه

ومنها نحو اربعين او خمسين حاشية مطولة مندرجة في خلال الكتاب يشغل بعضها ثلاث صفحات من الكتاب او اكثر شرح بها معلقها الففل كثيرًا من اغراض الكتاب العلمية والتاريخية وفي الظن الراجح انها لناسخ الكتاب وهو غفل ايضًا اخذها عن النووي والنويري وكعب الاحبار وابي اسامة الباهلي والشريف الادريسي ونصير الدين الطوسي وفخر الدين الرازي وغيرهِ من العلماء المشاهير ومعظمها العظيم من اذكار النووي وتاريخ النويري والسرّ المكتوم في مخاطبة النجوم المنسوب للرازي وهي مميزة عن متن الكتاب بهذا الحرف (حاشية) فقط. ولعل النسخة الموصوفة تنفرد بهذه الحواشي عما سواها

ولا بدَّ من ان اعرض على القراء مثالًا او مثالين من هذه الحواشي:

«حاشية للمؤلف رحمهُ الله قال: ان النفوس يصلحها التنقل من حال الى حال والتوغّل على شرفات الشد والترحال للاطلاع على الغرائب والاستطلاع للعجائب وقد قال الله تعالى: او لم يسيروا في الارض فينظروا. وقال سبحانهُ: هو الذي جعل لكم الارض ذلولًا فامشوا في مناكبها. وقال تعالى: افلا ينظرون الى الابل كيف خُلقت والى السماء كيف رُفعت. والى الارض كيف سُطحت... وذكر النبي (صلعم) خطبة قس بن ساعدة بعكاظ وفيها قولهُ: «ان في السماء لخبرًا وان في الارض لعبرًا» فتبيَّن على اللبيب المتبصر تتبُّع امر كل مملكة وما هي عليهِ من المخلّات والمآثم والاصطلاحات وما اشتملت عليهِ من الغرائب والاعجوبات ليعرف اهل كل قُطر ما عليهِ الآخر كانهم يشاهدونهُ عيانًا ويدركونهُ بيانًا ع آخر الحاشية والله تعالى اعلم»

ولا ادري المراد من حرف العين المفرد المثبت هنا ولعلهُ مقتطع من عنوان كتاب او علَم من الاعلام

ومن الحواشي المعزوة للناسخ وهي غريبة في بابها قولهُ:

حاشية ذكر النويري في تاريخه في الجزء ١٣ في قصة عيسى (عم) انهُ رُفع اول مرة ثم هبط الى الارض واوصى الحواريين ثم رُفع ثانية قال رفع الله تعالى عيسى لثلث ساعات مضت من النهار فلبث في السماء اياماً قبل سبعة ايام وقيل اربعين يوماً والله اعلم. ثم قال الله: ان اعداءك اليهود اعجلوك عن الوصية والعهد الى اصحابك فانزل اليهم واعهد لهم وأوصهم وانزل على مريم المجدلانية فانها في غار في جبل الخليل وكانت مريم المجدلانية من قرية من قرا (؟) انطاكية يقال لها عبدلا (١ وكانت من اوسط بني اسرائيل حسباً وكانت اجمل نسائهم واكثرهم مالاً وكانت تستحاض فلا تطهر ابداً. . . فلما ظهر عيسى صلوات الله وسلامهُ عليهِ وشاع ذكرهُ اتتهُ في جملة المرضى ليشفيها فخجلت ان تسألهُ لكثرة الناس حولهُ فجاءت من ورائهِ فمستهُ بيدها فزال عنها ما كانت تشكوهُ وطهرت (وطهرت) ونفقت مالها فيما امرها بهِ من وجوه البر وصارت فقيرة وتبتلت وتخلت للعبادة وكانت تُعدّ من اصحاب عيسى. قال وامر الله تعالى عيسى ان يامرها ان تجمع لهُ الحواريين وان يستخلف عليهم شمعون وان يفرقهم دعاة الى الله عزَّ وجلَّ في البلاد وان يخبرهم بالعلامة التي تاتيهم من الله. ثم اهبطهُ الله تعالى فاشتمل الجبل نوراً واتتهُ بالحواريين قبلهم رسالة ربهم وقال ذلك ان تأتيكم الملتكة في ليلتكم يعارف فيها نور من نور الله فكل من تناول منرفة منها فليلحس النور الذي فيها فانهُ يصبح وقد تكلم بلغة القوم الذي يُبعث اليهم ويصبح وهو على باب مدينتهم. قال والليلة التي هبط عيسى فيها هي الليلة تدخن النصارى فيها بالليان. قال فلما فرغ عيسى من وصيتهِ للحواريين رفع بعد سبعة ايام وتوفاهُ الله تعالى لثلث ساعات من النهار ثم كساهُ الريش وألبسهُ النور وقطع عنهُ المطعم والمشرب وصار ملكياً انسياً آخر الحاشية. اه

وهذه خاتمة كل حاشية من الحواشي المدرجة في الكتاب

٨ في اشباه الكتاب

لا تحدثني النفس ان اتبسط في ما نضا العرب اليهِ من الركاب في التحصيل وما عانوهُ في التدوين والتأليف وما تركوهُ من كتب موسوعات اليوم مثل ابن احمد الخوارزمي وابي يعقوب السكاكي وابن عروة الحنبلي وغيرهِ من الائمة المشاهير الذين تُعقد على فضلهم الخناصر فان هذا البحث خطير لا يسعهُ صدر مثل هذه المقالة وقد سبقني اليهِ جناب الاديب اللوذعي الامير شكيب ارسلان في مقالته المتعة (اتساع التأليف في الاسلام) التي نشرها على صفحات المشرق الاغرّ (٢ : ١٩٣—١٩٧) فليراجعها من شاء

انما اقتصر هنا على ذكر التآليف التي تشبهُ الكتاب الموصوف بمحتوياتهِ وهي عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات لزكريا بن محمد الكوفي القزويني المتوفى سنة

١) بل من قرى الخليل من اعمال فلسطين

٦٨٢ هـ الفهُ في زمن مفارقته الوطن . المقالة الاولى في العلويات وفيها ثلاثة عشر نظراً . والمقالة الثانية في السفليات وفيها انظار وفصول . اولهُ : « العظمة لك والكبرياء لجلالك اللهمَّ يا قائم الذات . . » طبعهُ ووستنفلد في غوتنغن سنة ١٨٤٩ والبابي بهامش حياة الحيوان للدميري في القاهرة ١٣٠٥ هـ وترجمهُ بعضهم الى الفارسية وطبعهُ في طهران سنة ١٢٦٤ هـ . قال الحاج خليفة : « واختصرهُ بعضهم وسماهُ الدرر المنتقات (؟) من عجائب المخلوقات » . والمعرب عن بعض عجائب المغرب لابي حامد محمد بن عبد الرحمن الاندلسي . اولهُ : « الحمد لله الذي ابدع العالم علماً على توحيده . . » ذكر فيه انهُ قد سألهُ بعضهم ان يذكر نسبهُ وبلادهُ وما شاهدهُ من عجائب البلدان فاجاب قال : رأيت ان استي هذا المجموع المغرب على رواية الكاتب الآنف الذكر . وتحفة العجائب وطرفة الغرائب لعزّ الدين ابي الحسن عليّ بن ابي الكرم المعروف بابن الاثير الجزري المؤرخ المشهور صاحب الكامل المتوفى سنة ٦٣٠ جمعها من كتب عديدة اولها : « الحمد لله رب الارباب ومنشئ السحاب . . » ورتبها على اربع مقالات . وعجائب المخلوقات للشيخ شهاب الدين احمد الحموي . اولهُ : « الحمد لله رب العالمين قيوم السموات والأرضين . . » ذكر فيه انهُ الف كتاباً مشتملاً على الآثار العلويَّة والسفلية . قال حاجي خليفة ما حرفهُ : « ثم اورد بعجائب المخلوقات ورتبهُ على فصول وابواب واختصرهُ بعضهم وسماهُ الدرر المنتقاة من عجائب المخلوقات » . وعجائب المخلوقات موجز عن كتاب القزويني لان مؤلفهُ كان ينقلهُ منهُ اولهُ : « الحمد لله رب الارباب . . » فيه بين جد وهزل وملح غريبة ورقيق وجزل والأولى ان يُعدَّ في جملة الادبيات المنثورة (اه عن ٢ : ١٠٨ وما يليها من كشف الظنون طبعة الاستانة بتصرف وزيادة عليه)

ونخبة الدهر في عجائب البرّ والبحر مجلد للشيخ شمس الدين ابي عبدالله محمد بن ابي طالب الانصاري الصوفي الدمشقي المعروف بشيخ حلين وبشيخ الربوة المتوفى سنة ٧٢٧ اولهُ : « الحمد لله الذي خلق السموات والارض . . » وهو على سبعة ابواب ككتاب عجائب المخلوقات . طبعهُ مهرن وفارين في بطرسبرج سنة ١٨٦٦ . وكتاب العجائب والغرائب مؤلفهُ مغربي كما قالهُ مترجمه السروري وهو على عشر مقالات : الاولى في العلويات ونظائرها . الثانية في الافلاك . الثالثة في الزمان . الرابعة في السفليات ونظائرها . الخامسة في العناصر . السادسة في المعادن . السابعة في النبات . الثامنة في

الحيوانات. التاسعة في القوى. العاشرة في الجنّ (عن ٢ : ٢٨٧ و٥٩٠ من الكشف بزيادة عليه)

ونهاية الارب في فنون الادب في ثلاثين مجلّدًا لشهاب الدين احمد بن عبد الوهاب النويري الكندي المتوفى سنة ٧٣٢ قال: « وما اوردت فيه الاغلب على الظنّ ان النفوس تميل اليه ورتّبتهُ على خمسة فنون. الاول في السماء والآثار العلويّة والارض والعالم السفلي ويشتمل على خمسة اقسام. الثاني في الانسان وما يتعلق به ويشتمل على خمسة اقسام. الثالث في الحيوان الصامت ويشتمل على خمسة اقسام. الرابع في النبات ويشتمل على اربعة اقسام (وذيّلهُ بقسم خامس من انواع الطب). الخامس في التاريخ ويشتمل على خمسة اقسام. والكتاب يعدّهُ حاجي خليفة من الكتب التاريخيّة (الكشف ٢ : ٦١٩) والأحق ان يعدّ في جملة موسوعات الفنون

وبقي كتب اخرى اقل مادّة واحط شأنًا من الكتاب الموصوف مثل بلوغ المراد من الحيوان والنبات والجماد للشيخ ابي بكر بن علي المعروف بابن حجة الحموي المتوفى سنة ٨٣٧ وخريدة العجائب وفريدة الغرائب لزين الدين محمد بن المظفر المعروف بابن الوردي المتوفى سنة ٧٤٩ في البلدان والمعادن والنبات والحيوان وقد عرّض صاحب الكشف باوهامه واباطيله الواهية (١ : ٤٦٠) واقف عند هذا الحد خوف الملل ومن شاء التوسع فعليه بكشف الظنون وغيره من فهارس الكتب العربيّة

٩ في معارضة الكتاب

انت خبير ان غالب الكتب السابقة الوصف هي مخاطيط ان لم تكن ملقاة في زوايا الاهمال فهي في حيز العدم ولم ينشر منها في عالم المطبوعات سوى ثلاثة كتب اكثرها تداولًا كتاب عجائب المخلوقات للقزويني فأقتصر على معارضة الكتاب الموصوف به لما بينهُ وبينها من شدة المشابهة تتمة للفائدة وتكملة للبحث المقصود

فالقزويني يكسر كتابهُ العجائب الى مقالتين. الاولى في العلويات ينظر فيها الى الافلاك والكواكب والملئكة وما يلحق بها. والاخرى الى كُرة النار فكرة الهواء فكُرة الارض وما فيها من الاحجار والنبات والحيوان الى غيره من اشباهه. والكتبي يكسر كتابهُ المباهج الى كتب اربعة: الاولى في السماء ويبحث فيه عن الملئكة

والافلاك والكواكب وما يتصل بها . والثلاثة الباقية في الارض ويحصر بحثهُ فيها في الجبال والبحار والمعادن والبلاد والحيوان والنبات الى غيرهِ من نظائرهِ

والقزويني يبدأ بالبحث في الافلاك فالملئكة مثلاً . واما الكتبي فيبدأ بالكلام على الملئكة فالافلاك اعتبار ان البحث عمَّا في السماء مقدم طبعاً على ما تحتها فالمباهج في هذا احسن ترتيباً من العجائب . والقزويني يبحث في القمر والشمس والكتبي يبحث في هذه قبل ذاك علماً منهُ بان القمر مستمدٌ من الشمس وهذه اعلى من ذاك وهو ادنى منها فلكاً . فالمباهج افضل وصفاً من العجائب من جهة الفلكيات ايضاً

والقزويني يبحث في النبات فالحيوان اعتقاد ان البحث بالقوة النامية فالحساسة فالعاقلة اولى والكتبي يبحث في الحيوان فالنبات اعتقاد ان الحيوان العاقل فالحساس افضل من النامي فالقزويني ينتقل من قوة كاملة الى اخرى اكمل منها الى ان ينتهي الى الانسان لباب الكمال في المخلوقات والكتبي يبدأ بجمل القوى ويأخذ بعده في تفصيل كل قوة منها بمفردها فالاول يتدرج من الاخص الى الاعم والآخر عكسهُ وكلا الاسلوبين حسن بيد ان الاول اعرق باساليب الفلسفة . والقزويني يعدُّ البرق والرعد والسحاب والرياح من السفليات والكتبي يعدها (من الآثار العلوية) ويلحقها بعالم الافلاك والكواكب فالمباهج ادق حكماً في المظاهر الجوية وغيرها من الموضوعات كما هو ظاهر

والقزويني يذكر من الاحجار مئة واربعة وعشرين حجراً واما الكتبي فيقتصر على اثنين وعشرين فقط ويضرب عن حجر القيء وحجر الكلب وحجر المطر وحجر الناقة وحجر طارد النوم وحجر مسهل الولادة وما لحق بهذه الترهات التي هي بالاوهام اولى منها بالحقائق . وهو يضرب ايضاً عن منافع امثال هذه الاحجار التي تشفي من لسعة العقرب وتسكن الورم وتبرئ القروح وتشفي الصدع وتنفع العيون وتحبب النساء الى ازواجهنَّ الى غير ذلك مما هو معدود من الخرافات ولا حظَّ لهُ من المعارف في شيء . فالكتبي اكثر حكمة من القزويني في هذا الباب

والقزويني يذكر من الملئكة هاروت وماروت ومنكر ونكير والحفظة والمعقبات وحملة العرش والسيَّاحين . . . ولا شيء من هذا في المباهج . والقزويني ينظر في تشريح اعضاء الانسان من اعصاب واوردة وشرايين وعظام وغيرها ولا ذكر لها في المباهج .

والقزويني ينظر الى القوى النفسانية الظاهرة والباطنة على اختلاف اصنافهـا وصاحب المباهج يُلمّ ببعضها الماماً خفيفاً فهو مقصر من هذه الجهة كما لا يخفى

والكتبي يتطرق في مباهجهِ الى البحث في طبيعة الارض والمعروف من طبقاتها في عصرهِ ولا شيء من هـذا في العجائب. ويذكر شهور العرب والروم والفرس والفرنج والسريان وفي العجـائب لا يذكر الّا شهور الامم الثلث الاولى عازيًا شهور السريان الى الروم. ويسلسل كلًا من اولاد نوح سـام ويافث وحام ولا شيء من ذلك في العجائب. ويذكر الشعوب الكلدان والفرس واليونان والروم والفرنج والقبط والعرب والبربر والحبش والسودان والترك والاكراد ولا اثر لهم في العجائب. ويذكر البلاد المعروفة بعصرهِ ولاسيما بلاد المسلمين على مقتضى التخطيط الجغرافي ولا شيء من هذا في العجائب. ويصف عجائب المباني كالبيج والخورنق والسدير وايوان كسرى والاهرام وغيرها ولا اثر لذلك في العجائب وعليهِ فالمباهج اكثر ابواباً من العجائب

والقزويني يحكي كثيرًا من الامور عن عجائب البر والبحر والاحجار والطلسمات مما يضرب عنهُ الكتبي في كتابهِ من حيث هو من باب الحكايات بل الخرافات واذا جاء فيهِ بعض الشيء منها فمورد من قائلهِ ومذكور على عهدة صاحبـهِ وهو في الغالب يعدّهُ من باب « اكاذيب العرب ومزاعم القوم وخرافات القوم » الى غير هذه مما يدل على دقّة نظرهِ وسعة عقلهِ وترفعهِ عن تصديق مثل تلك الترهات فتأمل

وبالجملة ان المباهج اغزر مادة واحسن تبويباً وابعـد مرمى عن السخافـة والتخاليط من العجائب بل ان كلّ مادة من مواد المباهج اكثر تبسطاً واكثر استيعاباً وادقّ تعريفاً وشرحاً من العجائب وهذا اقصر فصل في حجر اليشب اعارض فيهِ بين قول الكتابين ليظهر لك صحة الدعوى وان يكن قصرهُ لا يفي بالغرض المقصود

قال الكتبي: « اليشب واليشم هما حجران يقرب بعضهما من بعض يتكونان في معدن الفضة من الجزء مقصرة عن كيان الفضة اما بالزيادة واما بالنقصان في الرطوبة ولا يُدرى ايهما كان [اولًا] واجود اليشم ما كان لونهُ اصفر كاون العاج العتيق يميل الى الزرقة يسيرًا هذا هو المعدني ومنـهُ المصنوع ما لونهُ ابيض لهُ بريق وصفاء جوهر واشراق يؤتى بهِ من الصين. ومن المصنوع ما لونهُ ازرق في غاية الحسن والصفاء وليس المعدني في شيء من هذه الاوصاف البتة. واما اليشب فمنـهُ الابيض والازرق والزرقة

مصنوع كما يصنع اليشم » (اه عن باب ٢ من الفن الثاني)

وقال القزويني: « حجر اليشب ابيض مشهور يقال لهُ حجر القلبة من استصحبهُ لا يغلبهُ في الحرب ولا يجيعُهُ احد ولهذا يجعلهُ الملوك في مناطقهم المرصعة واذا وضعهُ العطشان في فمهِ سكن عطشهُ » (اه عن جزء ٢ ص ٨ من طبعة مصر). وبعد هذا كله لا اقالك من العجب لاهمال المباهج في زوايا النسيان واصابة العجائب كل ذلك الاشتهار والشيوع

١٠ً في انتقاد الكتاب

لا بدَّ من انتقاد الكتاب تتمة لوصفهِ وتفرقةً بين حقهِ وباطلهِ ومعرفة صوابهِ من خطائهِ وصحيحهِ من فاسدهِ فاقدمتُ على وعورة هذا المسلك وانا لست من طبقة المؤلف الذي فاق وسار ذكرهُ في الافاق وابدع كما شاء في ما تحرَّاهُ من الفنون الشاملة بسيط الارض واديم السماء خشية ان اقصر في توفية البحث حقَّهُ فارمي بالغرض في الاقتصار على الثناء على الكتاب وعلى واضعهِ فالديناز تظهر فضيلتهُ من حكِّهِ لا من ملاحة نقوشهِ الظاهرة

واول ما يؤخذ على المؤلف متابعتهُ بعض اهل السير والرواة في عزو الرائيَّة المفتتحة (بربك ايها الفلك المدارُ) الى ابن سينا البخاري والصواب انها لابن شبل البغدادي ومنشأ غلطهِ وخلط سواه وحدة الكنية والاسم فان كليهما يكنى بابي علي ويسمى بالحسن وحسبك الان من الادلة ان ابا اصيبعة بثبتها للثاني في كتابهِ طبقات الاطباء

ومن هذا وهمهُ في ان جلق هي دمشق. قال في اثناء كلامهِ على تملك جغنة الغساني: « فلمَّا استوثق الملك بنى جلق وهي دمشق وتنصَّر (١ هو وقومهُ » والصواب ان جلق غير دمشق (٢ وهذه لم يَبنها احد الغساسنة وقد ابان هذا الامر حضرة العلامة الاب هنري لامنس اليسوعي بما لا مردَّ عليهِ (المشرق ٣: ٤٣٨ و ٥٧٢ و ٦٥٨)

---

١) اثبت صاحب المشرق نصرانيَّة غسان بما لا مردَّ عليهِ خلافاً لما زعمهُ المكانين البغدادي في مجلة المقتبس (انظر المشرق ١٠: ٥١٩ و ٥٥٤)

٢) ليس كل لغوي العرب على ان جلق هي دمشق كما زعمهُ البعض فان مثل ابن سيده في بيت المتنبي «وبرزكزما بين الفرات وجلَّقِ» يقول (جلَّق في الشام بقرب دمشق). وكفى بقولهِ حجة لا تدفع

ومنهُ زعمهُ في لون الفلك حيث قال: « ان الفلك في نفسهِ جسم ليس بضياء. وان الشمس والنهار يشرقان عليهِ كما يشرقان على الارض فاذا اشرقا عليهِ وهو مظلم رُئي (رُؤيَ) لونهُ لازورديًّا ». وقد استذركهُ عليهِ بعض محشي الكتاب فقال: « لو صحَّ هذا القياس لما رُؤي لون الفلك اشد زرقة بالليل ولا شمس ولا نهار » قلت: وفي كلا القولين نظر من جهة جسميَّة الفلك ومن جهة زرقتهِ وفي كل منها آراء ليس هنا محلّ ايرادها. واما علة زرقة الجو فيرجح اليوم كثيرون انها ناشئة من انعكاس اشعة الشمس الزرقاء على الغبار الجوّي فتأمل

ومنهُ تعقبهُ ابا الريحان البيروني حيث قال: « انهُ يخرج من خليج القلزم خليج آخر يسمى بحر بربرا منسوب الى طائفة من الزنج » قال الكتبي: « وهذا منهُ وهم ». على ان الشريف الادريسي وياقوت الرومي وابا الفداء وسواه من جغرافيي العرب يسندون قول البيروني في هذا الخليج والمحدثون على ان المراد بهِ خليج عدن او خليج اجان

ومنهُ زعمهُ بالجن وتصحيحهُ هذر القدماء في وحدة الجن والملئكة « بان الجنّ غير الملئكة مخلوقون من سنخ غير سنخهم وهو النار » الى ان قال: « فان انكر قوم خلق الجن قهرتهم براهين المعقول وحجج القياس من ان الله تعالى انشأ خلق العالم من اربعة اجزاء جعلها اصولًا لمن خلق من العالم الحي الارض والماء والهواء والنار. والعالم نوعان علوي وسفلي والسفلي نوعان خلقهما من جزوين من الارض وهو ما عليها من الحيوان والثاني من الماء وهو ما فيهِ من السموك وهما هابطان لهبوط الارض والماء وظاهران لظهور اصليهما فاستمرَّ القياس فيهما وبقي العالم العلوي جزآن الهواء والنار وقد استقرَّ خلق الملئكة من الهواء فاقتُصر معقول القياس ان يكون خلق الجن من النار لتكون الاجرام الاربعة اصولًا خُلق اجناس اربعة » وفي هذه الفقرة عدة مآخذ وحيث ان المقدمة من القياس فاسدة لزم بحكم الضرورة ان تكون النتيجة فاسدة كما يظهر بادنى تأمل

ومنهُ انكارهُ البرهان الثابت على كروية الارض من « ان الشمس والقمر وسائر الكواكب لا يرجد طلوعها ولا غروبها على جميع نواحي الارض في وقت واحد بل يُرى طلوعها على النواحي المشرقية من الارض قبل طلوعها على النواحي المغربيَّة وغيوبتها عن النواحي المشرقية قبل غيوبتها عن المغربيَّة » وهو برهان لا يختلف فيهِ اثنان وامتراء المؤلف فيهِ في حين انهُ يقرُّ بكرويَّة الارض وسيرها من الغرابة بمكان

ومنهُ اعتقادهُ بما يجري مجرى الطلسمات كقولهِ « ان مدينة خبيص من مدن كرمان لا يمطر المطر فيها ابدًا الَّا خارج المدينة » وكقولهِ: « لا يوجد بمدينة حمص عقرب واذا أُخذ من ترابها ونُثر على العقرب ماتت » ومثلهُ « لا يدخل مدينة اعزاز من اعمال حلب حية واذا أُخذ ونُثر من ترابها ماتت لوقتها » الى غيرها من صنفها وهي من ارهام العوام

ومنهُ قولهُ في حظوظ الكواكب وهو بحرفهِ: « زحل حظهُ في الـ ٤ والـ ٨ لانهُ يدل على الارضين والعقارات . . . والحزن والموت . والمشتري حظهُ في الـ ٢ والـ ١١ لانهُ يدل على الاموال والنعم . . . واصناف السعادات . والمريخ حظهُ في الـ ٦ والـ ١٢ لانهُ يدل على العلل والمرض . . . والسجون . والشمس حظها في الـ ١٠ لانها تدل على العز والقوة والملك . . . والزهرة حظها في الـ ٥ والـ ٧ لانها تدل على احوال الاولاد والنسا . . . ». وقولهُ في افراح هذه الكواكب وهو بلفظهِ: « زحل يفرح في الـ ١٢ وآفتهُ في الـ ٦ . المشتري يفرح في الـ ١١ وآفتهُ في الـ ٥ = المريخ يفرح في الـ ٦ وآفتهُ في الـ ١٢ . الشمس تفرح في الـ ٩ وآفتها في الـ ٣ . الزهرة تفرح في الـ ٥ وآفتها في الـ ١١ . . . » . الى غير ذلك من القول بالخير والشر والاقبال والادبار المنوطة بالكواكب والاجرام وهي من الاباطيل التي ليس تحتها طائل وصدورها غريب عن قلم المؤلف الذي يهزأ باكاذيب العرب وترهات العوام وتخرقات اهل الفأل والتنجيم

على ان كل هذا طفيف والخطب فيهِ يسير بالنسبة الى ضخامة الكتاب وعذر المؤلف اظهر من بيانهِ في عصرهِ وحاشا ان ينقص هذا من جانبهِ او يحطَّ من رفعة مقامهِ فان لهُ في جنب كل سيئة حسنات وقبالة كل زلة بدائع وآيات فلا عجب ان يُغتفر لهُ مثل هذه السيئات بشفاعة الحسنات وما هي بقليلة

١١ في فوائد الكتاب

بقي ان ابسط لدى المطالع ما اتى بهِ المؤلف البارع في كتابهِ الرائع من جليل الفوائد وجزيل العوائد حتى جاء طبق اسمهِ مناهج الفكر ومناهج العبر . ولا عجب ان حاد عن طرق الصواب في بعض محتويات الكتاب فالجواد قد يكبو والفتى قد يصبو . ولا تُعدُّ الَّا هفوات العارف وتدخل الزيوف على اعلى الصيارف . وانت خبير ان التعقب على الكتب المطولة سهل بالنسبة الى تأليفها ووضعها وترصيفها بل ان التعقب على الكتب القديمة بغض النظر عن زمانها الذي كسدت فيهِ بضاعة الادب وقلَّ من ينضي

الى اكتساب المعارف وكاب الطلب ليس هو بالشيء الحسن عند نقّاد هذا الزمن كما لا يخفى على ذوي الاذهان

فالكتاب علمي ادبي. فالقسم العلمي يبسط المؤلف فيه كل ما عُرف في عصره من اراء ومعارف العرب واليونان والسريان القدماء في ما لهُ اقل علاقة في بسيط الارض واديم السماء. والقسم الادبيّ يورد فيه كل مستعذب مستملح من نثر وشعر فانق تقي الديباجة متين التركيب عليّ الانشاء لا يخلو من نكتة رائعة او حكمة بالغة الى فقر اخرى ادبية نادرة في نيران العرب والليالي والايام المشهورة والسنين التي تُضرب بها الامثال وغيرها من اشباهها. وبين كلا القسمين لحمة ظاهرة متينة الاواخي لا غبار عليها. وكل هذا قلما اجتمع في كتاب من فنهِ من كتب العرب التي تتداولها ايدي القوم في هذه الايام

وتحت ذلك فوائد اخرى عديدة اجدرها واخلقها بالتعريف الفوائد اللغوية حيث يذكر طائفة كبيرة من الالفاظ اللغوية والاوضاع العربيّة البحتة في اسماء عالم الكواكب وعالم الارض وعالم الحيوان وعالم الحجار وعالم النبات. والفوائد الفلكية حيث يبسط معارف العرب في الافلاك والكواكب المتحيرة والثابتة ومن الغريب الماثلة الى كروية الارض وسيرها قبل غليلاي بسنين عديدة. والفوائد الجيولوجية اذ يروي ما عرفوه من طبقات الارض وبحارها وجزرها وجبالها واقاليمها وان غلب عليها القدم فلا تخلو من طلاوة الجديد للباحث العصري. والفوائد الزراعية فيثبت آثار زراعة الحبوب والبقول والرياحين والاشجار عند العرب والرومان واليونان والسريان. والفوائد النسبية مثل سلاسل سام وحام ويافث طبق ما ورد في الكتاب العزيز وفي اثنائها يثبت اولية الخلق لآدم ويفند اصحاب المذهب المخالف. والفوائد التاريخيّة ولاسيما اخبار العرب والترك والاكراد والصابئة فانهُ لا يشذّ فيها عن مهرة اصحاب الاخبار والرواة. والفوائد الجغرافيّة بالخصوص جغرافيّة بلاد المسلمين وعلى الاخص جغرافيّة مصر واعمالها والاندلس وخططها فانها لا نظير لها في كتب الرحل واصحاب آثار البلاد. وفوائد اخرى مثل اكتشافات العرب في التبّت والصين والهند واليونان واوقيانية والقطبين الجنوبي والشمالي وكل هذا بسطهُ بالطف اشارة دون ان يعتورهُ ادنى لبس او اشكال.

وأقف عند هذا المدى خشية ملل القراء وكفى به تعريفاً بكتاب